

أنفاس القلم للماضي والحاضر

جرت العادة (وإنَّ الفضل والمنة)، في ذلك من الأجداد والأسلاف (رحمهم الله جميعاً)، إلى ما نحن عليه اليوم في حب التواصل، ومعرفة الحياة، ومعادن البشر..

أجل، نرعم الله كثيرة، وفي ازدياد (والحمد لله صاحب الفضل)، وهي التي — أي النعم — جعلت جُلنا يرفل بالعطاء، ويبخل البعض منا بالسخاء على غيره..

فلا يدوم الخير إلا بإطهاره على النفس، والعيال، والأهل، والجوار، وإذا ما كان كذلك، فعلام الله أكرمنا بالآلاء والغيث العميم؟

ألجمع والحراسة؛ أم بإكرام النفس والأنفس؟

أو لاستصلاح رمضاء أرواحنا؛ وأراضينا البخيلة بالشح والازدراء؟ أم للتنكر؛ واجترار الارتواء من هذا وذاك؛ حتى بسقية ماءٍ أو بصدقة الابتسامة؟

نعم، لست الآن في موضع النصيحة، كيما أسعد تلك الأعواد وأُفطر الألقاب والأضداد..

فبعض ممن نعرفهم، ونسمع قصصهم، وأوسع اللهم علينا وعليهم، جل حديثهم اقتصاد اليد، وكلفة السد، ومنحى العرض والطلب في كل وقتٍ (وحزة)!

ولا علم لي في ماذا يصنعون؛ إذا ما رأوا الولائم وتحشمو القوادم بالمحافل والمناسبات؟!

ثمة تحفة فريدة، وصورة رشيدة، بين التكافل والتكامل، والتفاضل والتنصل، والغنى والبخل، والمرض والاستعطاء، والتعالي والتواضع، والتعالي والاستصغار..

فالحياة كفاءة، وحجرة معرفية صغيرة جداً، وكفيلة باختصار المسافة إلى حدّاتها الأصلية والفرعية..

فجائحة "الكورونا"، قد أوجعت، وأحرقت، وفي نفس الوقت نفسه أوجدت الحلول وأبدعت بدواخل الإنسانية حب العطاء، والنهوض بالأمة للتعليم والسمو، وكذا العمل على راحة الفرد والمجتمع؛ بإيجاد التطبيقات وغيرها لتسهيل كافة الأمور (و[] الحمد والثناء) وكل الجهات المختصة..

فما زلت أتذكر جيداً من باب الرجوع إلى مُستهل هذه المقالة لعمي علي (رحمه الله)، في ديوانية العائلة القرين القديمة بالفريج الشمالي بالهفوف، وكأني أشاهد جلسته، وأسمع صوته وكحته وترجيبه وتهليله ساعة المطر، وترانيم (المرزام)، وكذلك المرحوم جمعة الشرجي الذي يجلس جواره..

حيث كان الباب مشرعاً، ورائحة الطين تنبعث من وجدان خطواتنا، وخشخشة الورق الكرتوني على التراب، (وصفحة) البارقة الخشبي المتفطر، وجلسة "عمي علي" عن يمين الليوان، وعمي أحمد في أوله ناحية الباب من اليسار!

كان يشاهد "عمي علي" ببصيرته أولاده وعياله من (الدرايش) الخمس المفتوحة، والمطلة للخارج على متممة الأصالة، والحب الحقيقي، والجوار، والتناسب، والتراحم..

وكل يعملون، ويحيكون، ويصبغون الخيوط بأناملهم، وفكرهم، وسوالفهم، وإخلاصهم، وصدقهم، وضحكاتهم رغم تعبهم بين "المزراق"، و"السدوة"، ودولاب الصوف والهدم بكسر الهاء إلى "البلول" أمام الدكاكين الثلاثة!

وكأنني أشاهد "عمي موسى" متشحاً (بطاقيته المشخلة)، وابن عمي محمد (أبو هادي)، يشاركه المهمة، والتعب في سبيل لقمة العيش، ومن جوارهم أحبابهم: أحمد، وجاسم، وعلي، أبناء محمد الجاسم (رحم الله) حيهم مع ميتهم آمين يا رب العالمين)..

فقد وردتني الأخبار من جدي أم علي، وعمي موسى (رحمهما الله)، عن بعض الأسر التي عملت معهم في تلك الديوانية كالمرزوق والحريص وغيرهم..

نعم، كانت هذه الديوانية أشبه بالملتقى للعمل، ومبيت الضيوف والزوار..

فذاك يأتي ويخرج، ورائحة القهوة تُدار بأريحية لمن حضر في الفناجين القديمة، والبلح يتقاسمهم في الأيدي، ونواة الطعام في (سحارة شاي الوزه الذي تحت طاسة المعدن الأبيض للتمر)..

شاهدت وسمعت في هذه الوقفة بأَم عيني للحكايا التي تحوط المكان بقراءة النعي، وأبيات الشعر،
ونبضات النصيحة، ورقة الحكمة..

وأنا بصراحة القول، وأمانة النقل، أغلب ما يدور فككت أحجيته فيما بعد من ناحية الفهم، وتحليل
زبدة المكان والمكين، والشخوص، والحبكة، وكذلك الملامح، وحتى (حمسة) البن أستحضرها بين طرقات الحب
في (المهباش)!

ففي يوم من الأيام، وددت في ذاك السياق، أن أشعل فوانيس الزمن، وذلك بأن أُمَازح أُمي وجدتي، لإزالة
عوالق الغبار المُتراكم على حافة الذاكرة؛ ببعض التساؤلات على سبيل الطرافة المثال:

كم عمرك بالعرس؟

كم كان مهرك؟

من زينك للزفة؟

من قام بترشيحك وخطوبتك؟

في أي عين تمت سباحتك؟

من اشترى الذبائح؛ ومن قام بطبخ الولائم؟

من جهز (غدنتك) وغرفة عرسك؟

وما كان من لسان الحال إلا الإسهاب، واستطراد التفاصيل وأدقها، وقد يستغرب البعض عن انسياب
الكلام، ورقة الوثام، ولا يعلمون من تسكنهم هذه الذكريات وتفاصيلها..

حتى أصبح مجمر ذاكرتهم بخور الحضور في أمانة التدوين؛ دون تملقٍ أو زيفٍ..

قبل أن يتجاسر النسيان عليها بالإهمال والتسويق في حفظها لا سمح الله..

خاتمة الحديث بهذه المٌطولة:

علينا أن نمد أعمارنا بالصدق والتواصل، ومجالسة الأجداد والأحفاد، فعلى ألسنة الحال تُدون الخصال،
ويوثق المآل، وأصحاب الهمة والوعي هم من يحفظون اسمنا وباقي المستند..